

بسم الله الرحمن الرحيم

دلالات منهجية في قراءات السيدة عائشة القرآنية الإستدراكات نموذجاً

زينة طه العلواني

السيدة عائشة هي أم المؤمنين ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال من السنة الثانية للهجرة، وأقامت في صحبته صلى الله عليه وسلم حوالي ثمانية أعوام وخمسة أشهر، وتوفيت رضي الله عنها في المدينة سنة سبع وخمسين للهجرة في عهد معاوية بن أبي سفيان. لقد كانت رضي الله عنها تتميز بذكاء جعلها تبرز بعلمها واجتهادها، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إليها بتساؤلاتهم وإشكالياتهم ويستشيرونها في مختلف المجالات في القرآن وعلومه وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدخلها وفي الفقه وفي علوم اللغة والأنساب والطب وغيرها من أمور الحياة لما تميزت به رضي الله عنها من سعة العلم بقربها المتميز ومعاشرتها للنبي صلى الله عليه وسلم.

أزمة في المنهج:

لقد ظهرت مبكراً أزمة البحث عن مناهج للتعامل مع الأصول "القرآن والسنة" وأنشأت شبكة علوم واسعة تتلمس المنهج العلمي في الكشف عن أسس للتعامل والتمحيص والتدقيق والنقد والتحليل لتلك الأصول. ولقد كان لبدایات عصر التدوين دور كبير في ظهور الحاجة إلى تأسيس مناهج علمية قادرة على التقييم والنقد، وذلك لأن جمع السنن وحشية فقداً كان في أول الأمر هو الهدف الأساسي من عملية التدوين، ولكن مع مرور الوقت وتوسع المادة المجموعة مع ظهور الفرق وتعدد استعمالات السنن وأسباب أخرى عديدة منها سياسية واجتماعية وعلمية، تغيرت وتنوعت اتجاهات البحث العلمي وتعددت طرقه واستدعى الموقف التركيز على بذل جهود كبيرة في بناء مناهج لتمحيص الروايات وتقييم أسانيدھا ومتونها في القبول أو الرفض، وبالرغم من أهمية هذا المجال وسعة الجهود المبذولة في رصد قواعد مهمة لنقد الأسانيد والمتون، إلا أنه وقعت تساهلات في تحري بعض العناصر التي كانت لها أهميتها وخطورتها في مجال تطبيق مناهج نقد المتون عملياً، ومنها ما كان في شأن تهميش دور استدراكات عائشة على سبيل المثال كمؤشرات منهجية في جعل هيمنة القرآن الكريم قاعدة ومنطلقاً في غريبة المتون بالذات في إطار قبول الأحاديث أو رفضها.

ولقد ظهرت محاولات جادة وقد تبدو متأخرة تخصصت في رصد استدراكات السيدة عائشة ونقدها للروايات المختلفة ومناقشتها لمناهج الرواة، ولكن لم يواصل العمل في تطوير دراسة الإستدراكات كمؤشرات منهجية لها القدرة على صياغة ضوابط قد تساعد في تغذية روافد علمية مختلفة خاصة في مجالات العلوم الحديثية والقرآنية وغيرها. وكان من أوائل من صنف في هذا الحقل المحدث التاجر أبو منصور عبد المحسن بن محمد بن علي البغدادي (411-489هـ) والذي رصد في مصنفه حوالي خمسة وعشرون حديثاً راجعت فيها السيدة عائشة الصحابة، ثم جاء أبو عبد الله بدر الدين الزركشي (745-794هـ) وألف كتاب (الإجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة) والذي توسع فيه عن ما كتبه البغدادي

بالرغم من أنه نقل عنه في مواضع متعددة، ثم جاء السيوطي فأختصره في رسالة (عين الإجابة في استدراك عائشة على الصحابة).

وبالرغم من محدودية هذه المؤلفات إلا أن المبادرة إلى إنتاج هذا النوع من الدراسات قد يثير التساؤل عن دوافع وأغراض مؤلفيها، فهل كان الدافع هو الحاجة إلى تطوير بنية مناهج نقد المتون والتي قد تقدم الإستدراكات فيها معالجات علمية تطبيقية قادرة على صياغة ضوابط منهجية تساعد في انضباط الأحاديث المطروحة؟ أو أن الغاية من تلك الدراسات كانت لتعالج مستويات منهجية أخرى مثل إعادة البحث في دراسة أدوار أمهات المؤمنين من زوايا بحثية تختلف عما كان سائداً آنذاك والذي كاد ينحصر في مجال الفضائل والمناقب؟

لا شك أن طرح "الفضائل والمناقب" كدراسات تعكس أهمية أدوار الصحابة ومنهم أمهات المؤمنين كان له إيجابياته على مستوى علمي معين، إلا أنه لا يخلو من الأعراض الجانبية السلبية التي قد يكون لها أثر في تضيق وحصر دائرة دراسة أدوار أمهات المؤمنين ومعطياتهن العلمية في جوانب تكاد لا تتجاوز مجالات الرواية، مع العلم أن جيل الصحابة الأول كان مدركاً أن كل واحدة منهن كانت تشكل مدرسة علمية تأسيسية لها منهجها وخصوصيتها التكوينية في المجالات المختلفة العلمية والثقافية والاجتماعية وغيرها مما وسع مساحات عطاءهن المتنوع والتميز بحيث تخرج على أيديهن الكثير من فقهاء الصحابة وعلماءهم. ولقد كان كثير ما يستشير أصحاب القرار "وهم أئمة وخلفاء المسلمين" أمهات المؤمنين في العديد من القضايا الشرعية والاجتماعية والسياسية وغيرها مما يتعلق بمصير الأمة أخذين بعين الاعتبار خطورة المهمة التي كلفت بها أمهات المؤمنين جميعاً كما بين القرآن الكريم معالمها في قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب: 34. فهن مأمورات بأمر إلهي بتبليغ وتعليم آيات الكتاب والحكمة للأمة في كيفية حسن الفهم والتعامل مع كتاب الله وبيان النبي صلى الله عليه وسلم لها، وذلك لأهمية الوقت والظروف المتنوعة العامة والخاصة التي كان يقضيها صلى الله عليه وسلم في بيوتهن واطلاعهن رضوان الله عليهن على خصوصياته التي من الصعب أن يطلع عليها غيرهن. ولذلك فقد أدرك الصحابة وخاصة فقهاءهم أهمية وخطورة أدوارهن وخصوصاً اللاتي تفرغن منهن لإداء دور التبليغ والتعليم أمثال عائشة وأم سلمة وحفصة وغيرهن كل حسب دورها وتفاعلها مع طبقات المجتمع المختلفة في تبليغ الرسالة التي أمرن بها.

ولقد أصبحت مناهج البحث في العلوم الشرعية عموماً وفي قضايا المرأة خصوصاً تواجه من التحديات الفكرية ما يجعل الحاجة إلى الكشف عن قراءات تعكس معالم الدراسة التحليلية الناقدة ضرورة أساسية مساعدة في تطوير مناهج الفكر الإسلامي في التعامل مع القرآن والسنة. وإن محاولة تقديم قراءات نقدية وتحليلية في نموذج "استدراكات عائشة على الصحابة" يعد من المشروعات القابلة للتطوير في معالجة عدة جوانب منهجية منها ما يتعلق بالدراسات القرآنية أو الحديثية أو دراسات المرأة وغيرها. أن تطوير مناهج البحث في الحقول المختلفة بحاجة إلى إعادة طرح لمعطيات أمهات المؤمنين وغيرهن من فقهاء الصحابة في دراسات بحثية جادة تقدم الإستدراكات وغيرها من المؤشرات المنهجية كاطروحات علمية تساعد في تطوير مناهج التعامل مع القرآن والسنة وعلى مختلف المستويات.

الإستدراكات والبنية الداخلية لقراءات السيدة عائشة للنصوص:

ظهرت مقولات نقد عائشة ومخالفتها الرأي مع عدد كبير من الصحابة في كتاب "استدراكات عائشة على الصحابة"، وإن بداية هذه الدراسات تضمنت جمع وحصر مجموعة محدودة من روايات السيدة عائشة الناقدة لبعض روايات الصحابة مع إشارات طفيفة من المؤلف تستبطن التحليل السطحي لتلك المقولات، ومع توقف تطوير هذا النوع من الطرح فقد اقتصرت معالم هذه الدراسات على الجمع لا التحليل النقدي الكاشف عن المنهجية.

ومع إعادة دراسة استدراكات عائشة رضي الله عنها نجد أنها تضمنت قواعد علمية ومنهجية في نوعية مناقشة الآراء ونقدها وتحليلها مع بيان دقيق لموقفها الذي غالباً ما كانت تستند فيه إلى منهج واضح في النقد والتقييم يجعل من القرآن الكريم القاعدة المهيمنة في القراءة والنقد والتحليل كما يجعل من أقوال وتطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم لتعاليم القرآن الكريم التي حفظتها عن ظهر قلب قاعدة لانطلاقها فيما تخالف فيه من الآراء. وما تعد تلك الإستدراكات إلا مؤشرات تؤكد على أهمية منهج عائشة القرآني في دقتها العلمية في استيعاب المقاصد والخصائص والقيم القرآنية المستبطنة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، الظاهرة في أقواله وأفعاله وتطبيقاته النبوية، ولذلك اجتهدت عائشة في إرساء معالم منهجها على أسس علمية دقيقة في كل ما يتعلق بالنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية ودراية.

إن عملية استنباط أهم المعالم التأسيسية في منهج عائشة النقدي يتطلب استقراء محورين أساسيين: الأول وهو النظري الذي يُستلهم منه استيعاب الراوي للدلالات المقاصيدية المستبطنة في التعاليم والقيم القرآنية والمبينة في التطبيقات النبوية وهذا المحور يعكس بدوره النموذج المعرفي التكويني لفكر الراوي. أما المحور الثاني فهو ما يختص بالتفصيلات المنهجية التطبيقية التي تساعد في تكوين حماية أو مناعة داخلية للرواية على المدى البعيد، ولذلك فقد أوجبت رضي الله عنها نقل الحديث بلفظه وعدم جواز روايته بالمعنى خشية التغيير أو التبديل المتوقع نتيجة قصور ذاكرة الراوي أو فهمه للمقصد أو المعنى، وخاصة أنه من المعلوم أن طبيعة النوع الإنساني أنه عرضة "للنسيان" فما لم تكن هناك منهجية دقيقة تساعد على توفير عوامل داخلية لحماية الأسس البنوية للحديث فقد يعرض للتغيير. ولذلك فقد رسمت عائشة خطوطاً منهجية أساسية توضح فيها تفصيلات منهجها لحماية الرواية في لفظها ومعناها، ولقد تميزت رضي الله عنها بحافظة حادة تسمح لها بمناقشة الرواة بدقة وذكاء، وهذا مما مكنَ لرواياتها أن تصبح مرجعية علمية وشرعية قادرة على النقد والتصحيح لعدد من الصحابة الذين يجيزون نقل الرواية بالمعنىⁱⁱⁱ. كما كانت تؤكد على الرواة وجوب بيان مناسبة الحديث وأهمية استحضاره كاملاً غير ناقص ولقد ظهر ذلك واضحاً في معظم استدراكاتها على الكثير من الصحابة، حيث كان يحضر البعض منهم مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في أول الحديث ويفوتهم آخره، أو يحضرون آخر الحديث ويفوتهم أوله مما يؤدي إلى اختلال الرواية وكانت تقول في ذلك "فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله"ⁱⁱⁱⁱ.

ولذلك فقد استدركت رضي الله عنها على كثيرين خطأ فهمهم للحديث، أو الخطأ في استنباط الحكم من آية قرآنية نتيجة الخلل في تمام الرواية، ولذلك فقد تميزت في استدراكاتها بحيرة جادة في التحليل والنقد والتصحيح وجودة النقاش على دقة التركيز على بيان نقاط ضعف الرواية وأسبابها دون التركيز على تجريح الراوي أو التشكيك في موقفه. ولكن دراسة (الإستدراكات^v) بهذه الصياغة أي بمعنى دراسة وتحليل مناقشات الصحابة ومراجعاتهم لبعضهم البعض مع تتبع ورصد

مناهجهم في الفهم والتحليل في مختلف المسائل والقضايا، لم يتم التركيز على دراستها أو مواصلة تطويرها كأدوات منهجية تساعد في توسيع مساحة التعامل مع القرآن والسنة عدا ما ورد متفرقاً في أصول الفقه أو علم فقه المقارنة بين المذاهب ونحوها وذلك في إطار مناقشة نماذج محدودة ولإغراض تختلف في التناول والتحليل والغايات عن طرح الاستدراكات وتناولها بالصورة التي عرضها الزركشي ومن سبقه في هذا المجال.^٧

ولقد روي عن السيدة عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ألفاً ومائتا وعشرة أحاديث، اتفق البخاري ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثاً^{vii}، وروى عنها عدد كبير من الصحابة والتابعين^{viii}. لقد كانت تشكل رضي الله عنها مدرسة علمية لها منهجها المتميز في التعامل مع القرآن والسنة. ولقد كان ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في حجرتها فلا تكتفي بسماع الآية ولكنها كثيراً ما كانت تثير التساؤلات والنقاش حول ما لا تفهمه من معاني الآيات. وبدراسة أحاديثها وآخرين من الصحابة يتبين لنا كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم تفسير القرآن بالقرآن كمنهج لفهم القرآن الكريم من جهة وقراءة السنة في ضوء القرآن من جهة أخرى. روى عن ابن أبي مليكة أنه قال: "ولقد كانت عائشة لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه^{viii}"، بل كانت تحث الناس على السؤال فقالت تثنى على نساء الأنصار: " نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين" رواه البخاري. ولقد عُرفت بتساؤلاتها فقالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ المؤمنون:60، أ هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال صلى الله عليه وسلم " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم، ثم قرأ: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْحَيٰرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ المؤمنون:61 " رواه ابن ماجه والترمذي. وقالت أيضاً: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ابراهيم:48 فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: "على الصراط" رواه مسلم. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حوسب عُذْب" قالت عائشة: أو ليس يقول تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الانشقاق:8 فقال صلى الله عليه وسلم: إنما هذا العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك¹ رواه البخاري. وهكذا كانت عائشة رضي الله عنها تقرأ سنة رسول الله في ضوء تعاليم القرآن الكريم ولا تتجاوزها، وكانت تعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان قرآناً يتحرك ولذلك وصفته حين سُئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: "أما تقرأ القرآن؟ قالت: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ^{ix}". وهو وصف القرآن الكريم له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم:4.

نماذج من قراءات السيدة عائشة المنهجية للنصوص:

لقد أختيرت هذه النماذج المنتخبة من الإستدراكات لدراساتها في تتبع ملامح قراءة عائشة النقدية والتحليلية للنصوص مع محاولة الكشف عن بنيتها الفكرية في فهم قيم القرآن الكريم ومبادئه العليا ومدى قدرتها على تنزيل تلك التعاليم القرآنية إلى عالم التطبيق الواقعي.

ولقد قسمت النماذج تحت محورين: محور نظري يقترح نقد عائشة العلمي الذي تقترح فيه تحليل فكر الراوي ومدى استيعابه للدلالات المقاصدية والقيمية في التعاليم القرآنية والمبينة في التطبيقات النبوية وهذا المحور له أهميته في بيان دور عائشة في الكشف عن بنية النموذج الإسلامي المعرفي. أما المحور الثاني فهو ما يختص بالتفصيلات المنهجية

التطبيقية، ولا يعني ذلك الفصل التام بين المحورين، بل في الحقيقة ان معظم النماذج المختارة تداخل فيها المحورين تداخلاً امتاز بالتوازن والتفاعل التكاملي في المنهج، وما على الباحث إلا الكشف عن مفردات ذلك المنهج.

المحور الأول: المرجعية القرآنية

ضم هذا المحور نماذج عكست رؤية عائشة القرآنية ومدى استيعابها لمفردات المنظور القرآني وقدرتها على الفرز والتمييز بين الكليات والجزئيات، كما يتبين عمق قراءات عائشة وقابليتها على الربط بين تعاليم القرآن وقيمه العليا وما تتضمنه من معاني خصائص الرسالة الخاتمة وعالميتها ومقاصد الشريعة وخصائصها وغيرها من المعالم الفلسفية التأسيسية للنموذج المعرفي الإسلامي وقدرتها على تنزيل تلك المعاني على الواقع الإنساني.

أ- نماذج في دلالات منهجية تعكس الرؤية القرآنية للتعامل مع السنة وبيان دورها:

لقد أكدت السيدة عائشة في رواياتها المختلفة على دور النبي صلى الله عليه وسلم كنموذج بشري قادر على تنزيل تعاليم القرآن الكريم على الواقع مستهدية بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: 21، ولذلك كانت غالباً ما تؤكد في روايتها على السنة الفعلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتطبيقاته العملية لمبادئ القرآن الكريم والإستهداء بأقواله في الإطار ذاته. وقد استنكرت على أبي هريرة رضي الله عنه أن يقص الأحاديث قصاً كما جاء عن الزهري أن عروة بن الزبير حدثه: أن عائشة قالت: "ألا يعجبك أبو هريرة جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسمعي ذلك وكنت أسبح فقام قبل أن أفضي سبحتي ولو أدركته لرددت عليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم^x" أخرجه مسلم.

وفي إطار القيام بتحليل موقف عائشة في هذه الرواية يتبين أن استدراكها على أبي هريرة كان محاولة منها للتحذير من عدم استيعاب الراوي لمفردات منهج التعامل مع السنة وهو بذلك قد يعكس وجود خلل في البنية الداخلية لتصورات الراوي، ولذلك أشارت رضي الله عنها إلى خطورة هذا الموقف في قولها " ولو أدركته لرددت عليه". فهي تحاول أن تقدم من خلال موقعها العلمي والإجتماعي معالجة في بيان الحاجة إلى ارساء دعائم منهجية قرآنية في التعامل مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسرد أقواله صلى الله عليه وسلم وكأنها قصص تروى، وإنما في كيفية تحويل القول إلى واقع عملي وذلك لكونه (صلى الله عليه وسلم) أسوة ونموذج بشري يقتدى بأقواله وأفعاله وتطبيقاته، وهذا ما كان يؤكد ويدعو إليه الكثير من فقهاء الصحابة وأولي الأمر منهم من مواقعهم المختلفة كأبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وزيد بن الأرقم وغيرهم^{xi} كثير، ولقد ظهر تطبيق منهج النهي عن سرد الأحاديث صارماً عند الشيخين وخاصة عمر بن الخطاب في نهي المستمر عن الإكثار في الرواية خشية ابتعاد الناس عن المقاصد الحقيقية المستبطنة في تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث أكد عمر هذا المقصد في ما روى^{xii} قرظة بن كعب أنه قال: "بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا إلى موضع قرب المدينة يقال له صرار، قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحق الأنصار. قال: لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم! إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز الرجل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد، فأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا شريككم^{xiii}". ولقد بين عمر لجميع الصحابة دلالات مقصده فهذا

أبوهريرة رضي الله عنه يؤكد ذلك حين سأله أبو سلمة: أكنت تحدث في زمن عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربي بمخففته^{xiv} وفي رواية أخرى قال: لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها في زمن عمر لضربي عمر بالدرة^{xv}. ولقد نهج عثمان المنهج ذاته فأعلن على المنبر: لا يحل لإحد يروي حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر^{xvi}. ولم تختلف عائشة عن عمر وغيره من فقهاء الصحابة في إدراكها للدلالات المقاصدية في التأكيد على قراءة سنة رسول الله من خلال القرآن الكريم ثم استيعاب أقواله وتطبيقاته صلى الله عليه وسلم وقراءة دلالاتها من خلال المصدر ذاته.

ب- نموذج في تأكيد عائشة على دور النبي صلى الله عليه وسلم في ضوء القراءة القرآنية:

رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه:

عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمته هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد فف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۗ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الانعام: 103، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: 51) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لقمان: 34) ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: 67) ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين. رواه البخاري^{xvii}. وذكر الحاكم في مستدرکه^{xviii}: قد اعتمد الشيخان في هذا الباب أخبار عائشة بنت الصديق (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام).

إن إدراك معاني مفردات النبوة تعد واحدة من أعقد القضايا التي واجهت البشرية عبر العصور ولذلك فإن القرآن الكريم فصل في مواقع كثيرة مفردات ماهية النبوة وخصائص الأنبياء ولكن يبقى الإنسان يتحدى ويشير من التساؤلات والإشكاليات إلى أن يجد ما يهديه إلى سواء السبيل وهذا ما حاولت السيدة عائشة توضيحه للسائل من خلال وضوح رؤيتها القرآنية في استيعاب معاني مفردات النبوة الخاتمة ومعالم حدود نبوته صلى الله عليه وسلم، حيث أكدت بقوة إلى نفي كل ما يختص بعلم الغيب عنه صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله، وما النبي إلا صاحب مهمة محددة لا يخرج عن نطاقها، وأنه أداها صلى الله عليه وسلم كما أمر. ولقد أدركت رضي الله عندها خطورة الموقف ولذلك فقد طرحت في إجابتها معالجة دقيقة لأطروحات خطيرة كهذه قابلة لانتاج سلسلة من الإشكاليات العقيمة التي لا تؤدي إلا إلى تضليل الناس وإبعادهم عن مهمتهم الأساسية في هذا الكون وإشغال فكر المسلم بقضايا التفكير الخرافي الذي يحطم الإبداع البشري ويعيق التقدم الفكري والنفسي والأخلاقي بكل جوانبه ويجعل الأمة تعاني من مضار التخلف والخسران. ولذلك أكدت رضي الله عنها على بشرية النبي صلى الله عليه وسلم ونفت عنه علمه بالغيب لتحكم غلق أبواب الكهانة والسحر أو

إدعاء النبوة ونحوها، وهكذا رسمت بحكمته خطوطاً منهجية واضحة في التعامل مع قضايا العقيدة من خلال ربطها الدقيق بالقرآن الكريم.

ج- نماذج في وضوح رؤيتها للقيم القرآنية ومبادئه العليا المتمثلة في العدالة المطلقة والمساواة وغيرها:

منهج عائشة رضي الله في تحليل رواية "البكاء على الميت":

في رواية للبخاري^{xix}، عن هشام عن أبيه قال ذكر عند عائشة رضي الله عنها أن ابن عمر رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله. فقالت: وهل إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليعذب بخطيئته وذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن.

ولقد جاء في سنن الترمذي نقل عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الميت يعذب ببكاء أهله عليه" فقالت عائشة: يرحمه الله لم يكذب ولكنه وهم إنما قال رسول الله لرجل مات يهودياً: "إن الميت ليعذب وإن أهله ليبكون عليه". ثم قالت عائشة مذكرة الحضور بالرجوع إلى القول الفصل في القرآن الكريم: حسبكم القرآن قال تعالى: ﴿وَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ الأنعام: 164 قال أبو عيسى: حديث عائشة حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن عائشة وقد ذهب أهل العلم إلى هذا وتأولوا هذه الآية ﴿وَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ وهو قول الشافعي^{xx}.

إن العملية النقدية التي تبنتها عائشة لهذه الرواية تضمنت معالجة عدة قضايا في المتن منها مناقشة حفظ الراوي الذي لم يتقن نقل الرواية باللفظ مما أدى إلى خلل في المعنى، مع تأكيدها على ذكر مناسبة الرواية، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل قولاً ما لم يكن هناك سبب كسؤال أو حادثة أو نحوها، وإن اقتطاع قوله صلى الله عليه وسلم وعزله عن مناسبهته يؤدي إلى خلل في المعنى والتدليل والاستنباط، وهذا مما جعل عائشة تؤكد في الكثير من استدراكاتها على ذكر مناسبة الحديث وأسبابه كأداة منهجية تُقوم المعنى وتساعد في توضيح مواطن الإستدلال به كما تساعد على اختبار المتن وتقييمه. أما المؤشر المنهجي الآخر الذي اقترحه في هذه الروايات كمنهج علمي قادر على التقييم هو دراسة الرواية وتحليلها ضمن إطار تعاليم القرآن الكريم واستحضار قيمه العليا ومقاصده. ولقد توصلت عائشة في تحليلها لهذه الرواية عند عرضها على منظومة القيم القرآنية أنها تخالف قيمة العدالة القرآنية المطلقة في أن سعي الإنسان وعمله هو الميزان الذي يحاسب عليه الإنسان حياً أو ميتاً، ولا يؤاخذ إنسان بعمل آخر ولو كان من أقرب المقربين وهذا ما جاء في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ﴿وَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشِنُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿فاطر: 18﴾، وقال تعالى ﴿أَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ﴿النجم: 38-41﴾، وقال تعالى ﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۗ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۗ وَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿الأنعام: 164﴾، وقال تعالى ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿الإسراء: 15﴾، ﴿وَلَا تَزُرُ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿الزمر: 7﴾

فرواية (أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) يحمل الميت أوزار أعمال الآخرين وهذا مما يخالف قيمة العدالة القرآنية فالمرء يحاسب على فعله وليس على أفعال غيره ولذلك فقد بينت السيدة عائشة في روايتها (إنه ليعذب بخطيئته وذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن) فهو يعذب بذنبه لا بذنوب غيره.

منهج عائشة في تحليل رواية ولد الزنى:

عن الزهري عن عروة قال: بلغ عائشة أن أبا هريرة يقول ثلاثة أقوال منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. **الأول:** أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لأن أفتع بسوط في سبيل الله أحب إلى من أن أعتق ولد الزنى" **وأما الثاني:** "ولد الزنى شر الثلاثة". **والثالث:** "إن الميت يعذب ببكاء الحي".

فقال عائشة: رحم الله أبا هريرة أساء سمعاً فأساء إجابة، أما قوله الأول: فإنها لما نزلت آية ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُ رَقِيَةً ﴿البلد: 11-13 قيل: يارسول الله ما عندنا ما نعتق، إلا أن أحدنا له الجارية السوداء تحدمه وتسعى عليه، فلو أمرناهن فزنين فجنن بأولاد فأعتقناهم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لأن أفتع بسوط في سبيل الله أحب إلى من أن أعتق ولد الزنى"، وأما "ولد الزنى شر الثلاثة" فلم يكن الحديث على هذا، وإنما كان رجل من المنافقين يؤدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يعذريني من فلان؟ قيل: يارسول الله إنه مع ما به فهو ولد زنى! فقال صلى الله عليه وسلم "هو شر الثلاثة" والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وأما قوله: "إن الميت يعذب ببكاء الحي" فلم يكن الحديث على هذا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بدار رجل من يهود قد مات وأهله يبكون عليه، فقال: "إنهم ليبكون عليه وإنه ليعذب". قال الحاكم تعليقاً على هذا الحديث أنه صحيح على شرط مسلم ولم يخرج. وروي عن عائشة في شأن ابن الزنى (ليس عليه من وزر أبويه شيء)، قال تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^{xxi}.

إن السيدة عائشة في هذه الروايات تقترح صياغة معالم أساسية تختبر فيها الرواية: منها ما يختص في توضيح بنية النموذج المعرفي القرآني والتأكيد على عدم السماح بخلطه مع أعراف وتقاليد أي مجتمع إنساني. ولذلك فهي تؤكد على قيمة العدالة القرآنية المطلقة بكل معانيها وتطبيقها على جميع المستويات، قال تعالى ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿النجم: 38-41، فكل يحاسب على عمله وهي قاعدة العدل المطلق التي تبين أنه لا فضل لإحد على أحد إلا بالعمل والتقوى، وقال تعالى ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: 15. فولد الزنا قد يكون مرفوضاً أو مبنوداً من المجتمع كنتيجة طبيعية في التعبير عن استنكار جريمة والديه ولكن القرآن الكريم يرى ساحة الولد ويقترح معالجات إيجابية تساعد في إعادة بناء شخصيته نفسياً ومعنوياً مع تهيئة المجتمع وتشجيع الأمة في تبنى مثل هذه الحالات بالرعاية والعناية مما قد يعين الإنسان الضحية على اكتشاف الخير والصلاح وحب الناس، بدلاً من إنتاج إنسان عاجز وحاقد على كل من حوله، وهذا ما حاولت السيدة عائشة توضيحه في استدراكها على روايات أبي هريرة في تأكيد معاني المنظومة القيمية القرآنية وتفعيل صياغتها في تحويلها إلى فعل إنساني قادر على تحقيق المقاصد العليا من تركية النفس الإنسانية وتعمير الكون بما فيه صالح الإنسانية.

د- نماذج في تأكيدها على الكشف عن مقاصد الشريعة وخصائص الرسالة وبيان معالم التخفيف والرحمة لهذه الأمة:

لقد وردت عدة روايات في كتاب الزركشي تستدرك فيها عائشة على الصحابة وتستنكر تشديدهم في الأحكام منها:
الرواية الأولى: عن عبيد الله بن عمير قال: بلغ عائشة أن ابن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، فقالت: يا عجباً لابن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يخلقن رؤوسهن! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد، وما أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات". أخرجه مسلم^{xxii}. ولقد أكدت ذلك أم سلمة في قولها: قلت: يارسول الله إني امرأة أشد ضفر رأسي، أفأنقضه لغسل الجنابة؟ فقال: لا إنما يكفيك أن تحشي على رأسك ثلاث حثيات ثم تفيض عليك الماء فتطهرين^{xxiii}.

الرواية الثانية: عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال سمعت أبا هريرة يقول في قصصه: "من أدركه الفجر جنباً فلا يصم"... قال: فانطلقنا حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة، فسألها عبد الرحمن: قالتا: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبح جنباً من غير طهر ثم يصوم". ففجئنا أبا هريرة فذكر له عبد الرحمن فقال: أهما قالتاه لك؟ قال: "نعم" قال: "هما أعلم"، ثم رد أبو هريرة ما كان يقول في ذلك إلى الفصل بن العباس فقال أبو هريرة: سمعت ذلك من الفضل ولم أسمع من النبي صلى الله عليه وسلم". فرجع عما كان يقول^{xxiv}.

إن استدراك عائشة على تلك الروايات يستبطن منهجاً قوياً في التحليل والتقييم، استمدت مفرداته من عمق استيعابها لمعاني مقاصد الشريعة وخصائص الرسالة الخاتمة التي من أهم معالمها أنه شريعة تخفيف ورحمة كما وصفها القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: 157. بين رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المعاني في أقواله وأفعاله ولم يترك مجالاً لإحد أن يشدد على نفسه أو على غيره بحجة التقرب إلى الله فعن أنس بن مالك قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" رواه البخاري. كما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يدركوا معالم خصائص هذه الشريعة وأنها شريعة تخفيف ورحمة فلقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال سلمان: كل! قال أبو الدرداء: إني صائم. قال سلمان: ما

أنا بأكل حتى تأكل. فأكل أبو الدرداء، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال سلمان: نعم، ثم ذهب ليقوم فقال سلمان: نعم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن فضليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولإهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه. فأتى سلمان النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال النبي: صدق سلمان. ولقد أعلنها صلى الله عليه وسلم لإصحابه في حادثة الأعرابي: عن أبي هريرة قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) رواه البخاري.

ولقد أكدت عائشة رضي الله عنها في استدراكها على الحديثين أهمية استحضار هذه المعاني التي تعد من أهم خصائص الشريعة الإسلامية خاصة التخفيف والتيسير والرحمة، فقد بينت في الحديث الأول أن غسل المرأة أيسر مما اقترحه الراوي حتى استنكرت وقالت: أفلا يأمرهن أن يخلقن رؤوسهن! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد، وما أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إ فراغات". وفي الحديث الثاني اعترضت عائشة وأم سلمة على الراوي الذي كان في روايته تشديد على الصائم يصعب تنفيذه قالتا: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبح جنباً من غير طهر ثم يصوم" ويتضح من تلك الاستدراكات مراعاة السيدة لإبراز معاني التيسير والرحمة وتنبية الناس على الالتزام بما.

هـ- نماذج من وضوح رؤيتها القرآنية في دور المرأة الاستخلافية وبيانها المستمر في تثبيت هذه المعاني في المجتمع:

لقد أدركت السيدة عائشة مع غيرها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والصحابيات الفاضلات أدوارهن في حمل أمانة مهمة الاستخلاف وأدائها، ولقد بذلت المرأة جهدها في عصر النبوة على أن ترسي معالم هذه المهمة وتشارك أخوه الرجل في أدائها بثقة عالية استمدتها من تعاليم القرآن الكريم وتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم فقد بين سبحانه وتعالى وحدة أصل الرجل والمرأة في مواطن عديدة منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء: 1، ثم بين سبحانه مهمة الإنسان على وجه الأرض وسبب وجوده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 30، وقال في تقرير المسؤولية الإنسانية قال سبحانه ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۗ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ آل عمران: 195. ولقد بين سبحانه دورها المتكامل مع الرجل في مواضع عديدة فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۗ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة: 71-72، وقال في تأكيد تكامل دورها مع أخيها الرجل لأداء مهمة الاستخلاف ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَاشِعِينَ وَالْحَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ الأحزاب:35.

فلقد أدركت السيدة عائشة أهمية تدريب المرأة وتعليمها لإداء دورها فروت في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن سترأ له من النار) رواه البخاري ومسلم. كما روت رضي الله عنها تصف نساء عصرها فتقول: (كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس^{xxv}) رواه البخاري ومسلم. ولقد قالت رضي الله عنها في اعتكاف النبي صلى الله عليه وسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده. رواه البخاري. بل لقد شاركت النساء في صلاة الجنائز فقد روت السيدة عائشة: (لما توفي سعد بن أبي وقاص أرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يميروا بجنائزته في المسجد فيصلين عليها فوقف به على حجرهن يصلين عليه) رواه مسلم.

وهناك العديد من مواقف أمهات المؤمنين عامة وعائشة خاصة التي تؤكد حرصهن على تعليم وتدريب المجتمع عموماً والنساء خصوصاً في توضيح أهمية دور النساء في بناء الأمة وأداء الأمانة التي كلف بها بني الإنسان رجالاً ونساءً، ولذلك فقد استنكرت على بعض الرواة روايتهم التي كانت تحمل في ثناياها مخلفات الجاهلية وآثارها فكانت تحاول في استدراكاتها تصحيح المفاهيم الخاطئة وقراءتها في إطار المرجعية القرآنية كي لا يخلط الناس بين الأعراف الزائلة وبين المفاهيم القرآنية الواضحة، ولذلك فسنين ذلك في روايتين من استدراكها على الرواة ومحاولتها اقتراح منهج للتصحيح والذين أبرزته ضمن محورين: الأول في تصحيح نقل الرواية باللفظ مع التأكيد على توضيح مناسبة الرواية وفي ذلك محاولة منها لاقتراح منهج بنائي تقيمي لقبول متن الرواية أو رفضها. أما المحور الثاني: فهو منهج ربط سنة النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم بحيث تدور معه حيثما دار.

الرواية الأولى: " أن رجلين دخلا على عائشة فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار" قال: فطارت شقة منها في السماء وشقة منها في الأرض وقالت: " والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول، ولكن كان نبي صلى الله عليه وسلم يقول: كان أهل الجاهلية يقولون: الطيرة في المرأة والدابة والدار"، ثم قرأت رضي الله عنها ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذُلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ الحديد:22،23^{xxvi}.

الرواية الثانية: أن من الأحاديث التي تعكس دقة تحري عائشة رضي الله عنها استدراكها العنيف على أبي هريرة في حديث قطع المرأة للصلاة حيث روي عنه أنه قال: "يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب.." وفي رواية أخرى "والكلب الأسود" أخرج الشيخان في صحيحهما عن مسروق عن عائشة ذكر عندها ما يقطع الصلاة: الكلب والحمار والمرأة، فقالت عائشة: "شبهتمونا بالحمير والكلاب، والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا على السرير بينه وبين القبلة، مضطجعة، فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنسل من عند رجله".

تعلم السيدة عائشة حق العلم اضطهاد المرأة في عصر الجاهلية قبل الإسلام، وتعلم كذلك قوة وقسوة ذلك العهد، ومن الطبيعي أن الإسلام غيّر بتعاليمه عشرات العادات السلبية الجاهلية وكان تغييره جذري في قضايا المرأة ولكن لا تنسى عائشة قرب عهد الناس بتلك التعاليم التي لا يزال المجتمع الإسلامي الجديد يبني لبناته الأولى في تشيبتها، ولذلك كانت تحرص كل الحرص على بيان أهمية دور المرأة في النظام القرآني فهي تسند المرأة وتدعمها لتقوم بدورها من جهة وكذلك تعلم الرجل كيف يتخلص من بقايا الجاهلية في رؤيته للمرأة وتدعوه إلى أن يقف بجانبها كما أنزلت التعاليم القرآنية وأكدتها التطبيقات النبوية من جهة أخرى وهذا ما نتلمس جانب منه في نماذج استدرآكاتهما رضي الله عنها.

المحور الثاني: تطبيقات عملية في منهج حماية السنة:

أ- نماذج في تحري دقة الرواية وحسن الحفظ:

كانت ترى رضي الله عنها وجوب نقل الرواية باللفظ لا بالمعنى، وكانت تتبع حفظ الرواة بالإضافة إلى تحليلها الدقيق للمعنى:

الرواية الأولى: قالت عائشة لعروة بن الزبير: يا بن أخي بلغني أن عبد الله بن عمرو ماّر بنا إلى الحج فألقه فأسأله، فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً، قال عروة: فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان فيما ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً، ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم، ويبقي في الناس رؤوساً جهالاً يفتنهم بغير علم، فيضلون ويضلون". قال عروة: فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته، قالت: أحدثك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال عروة: حتى إذا كان قابلاً (أي السنة القادمة) قالت له: إن ابن عمرو قد قدم فألقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم، قال: فلقيته فسألته فذكره لي نحو ما حدثني به في المرة الأولى، قال عروة: فلما أخبرتها بذلك قالت: ما أحسبه إلا صدق، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص^{xxvii}.

الرواية الثانية: عن أبي هريرة قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً" فقالت عائشة رضي الله عنها: "لم يحفظ الحديث، وإنما قال صلى الله عليه وسلم "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً" هُجيت به". أخرجه الشيخان^{xxviii}.

ان استدرآك السيدة عائشة على الرواة وتأكيدها على نقل الرواية باللفظ إنما هي مقترحات منهجية تحاول من خلالها أن تقدم معالجات تطبيقية مهمة في منهج أدب النقد فهي تتعامل بحكمة مع الراوي تعذره ولا تكذبه أو تعنفه وإنما تعبر عن ذلك بأنه سهى أو نسي أو وهم وهذه كلها صفات إنسانية بحجة لا يخلو أحد منها، وما الكمال إلا لله، مما يؤكد أهمية وجوب نقل الرواية بلفظها لا بمعناها فيحفظ للراوي وللمروي عنه حق أمانة التبليغ. كما تفتح باب النقد للعالم والمتعلم لمراجعة الراوي ومناقشته فيما يروي بدقة واستقامة وعدم القبول بالتسليم المطلق. كما أكدت حرصها على أداء أمانة العلم وتوجيه طلابها إلى ذوي الخبرة في المجالات المختلفة: فلقد روى مسلم في صحيحه عن شريح بن هانئ قال: أتيت عائشة أسأله عن المسح على الخفين فقالت: "عليك بابن أبي طالب فسله فإنه كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم" فسألناه فقال: "جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم^{xxix}".

كما توحى الروايات السابقة إلى مؤشرات منهجية مهمة تحاول رضي الله عنها تقديم معالجة في خلق وعي منهجي عند المسلم في استيعاب تعاليم القرآن الكريم وقيمه في تنظيم الأولويات في استخدام الوقت وتنميته، وعدم فناءه في أمور لا فائدة منها في الدنيا ولا في الآخرة كما اتضح في الرواية الثانية من نهي صلى الله عليه وسلم عن قضاء الوقت في حفظ أشعار هجي فيها، بينما على المسلم تنمية قدراته ومهاراته في ما ينفعه في الدنيا والآخرة، وذلك في جعل السؤال وسيلة هامة في تحييص وغرلة كل ما هو مطروح للحصول على ما ينفع ونبد وترك ما لا ينفع قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ الرعد: 17.

ب- نماذج على تأكيدها على أهمية بيان مناسبات الرواية:

أخرج البخاري ومسلم عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان الناس يتناوبون الجمعة من منازلهم من العوالي فيأتون في الغبار ويصيبهم الغبار والعرق، فيخرج منهم الريح، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل منهم وهو عندي فقال: "لو أنكم تطهروا ليومكم هذا" وفي رواية أخرى أن عائشة قالت: أكثر الناس في الغسل يوم الجمعة، وإنما كان ذلك في بيتي، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من أهل العالية في يوم حار قد عملوا في نخلهم وعليهم ثيابهم الصوف فدخلوا ولهم أرواح منكورة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان هذا اليوم فاغتسلوا^{xxx}.

إن رواية الحديث منقطعاً عن مناسبه يؤدي إلى خلل في فهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك فقد كانت تتبع السيدة عائشة مناسبات الحديث وتؤكد على دقة نقلها كي لا يقع المسلم الراوي والناقل في إساءة فهم لمعنى الحديث، ولذلك فقد أشارت في هذا الحديث إلى أن الناس تناولوا الغسل يوم الجمعة وأوصلوه إلى درجة الوجوب ولم يدركوا السبب الذي دفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى اقتراح الغسل، وإن كانت النظافة مأمور بها في كل حين ولكن هناك فرق بين أمر شرعي صادر عن رسول الله وبين مستحب اختياري.

الخلاصة:

يتبين من خلال المراجعة السريعة لبعض نماذج استدراقات السيدة عائشة وضوح دلالات منهجية شكلت فكرها العلمي وبنيتها العقيدية وصفاءها الروحي في حسن تعاملها مع منهجية القرآن الكريم وصدق ربطها بتطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم. كما أنه من الواضح أنها لم تبين اجتهاداتها في فراغ، وإنما كان واضحاً لديها مقاصد القرآن الكريم وخصائص الرسالة الخاتمة ومنظومة القرآن القيمية مع وضوح الهدف والغاية وخاصة في مجال العقيدة والتطبيق. إن دراسة استدراقات السيدة عائشة وغيرها من الصحابة تعد لبنة منهجية مهمة قابلة لتطوير العديد من مناهج التعامل مع القضايا البحثية المطروحة للدراسة في المجالات الشرعية ودراسات المرأة وقضايا أخرى عديدة. فالاستدراقات تعد ثغرة علمية لا تزال معطياتها مفتوحة للبحث، حيث أن للاستدراقات القدرة على تطوير تطبيقات مناهج نقد المتون وتفعيلها في مجالات مختلفة لا تقتصر على قبول الأحاديث أو رفضها وإنما تساعد في صياغة ضوابط منهجية علمية قادرة على ربط سنة النبي صلى الله عليه وسلم ربطاً دقيقاً مع القرآن الكريم مما يسهل الفهم والاستيعاب للعلاقة بينهما من جهة مع تسهيل تفعيل النص وتنزيله في أرض أي واقع إنساني دون غموض. كما أن دراسة وتحليل معطيات استدراقات عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين دراسة

علمية جادة قد تمنحها القدرة على تغيير دفة البحث في دراسة قضايا المرأة عامة الكليات منها والجزئيات مما يجعلها قادرة على تقديم الإجابة على إشكاليات مختلفة في هذا الحقل التي تساعد في تحليل وفرز تلك الإشكاليات التي يطرحها النموذج الغربي ليتحدى فيها النموذج المعرفي الإسلامي.

- i لقد ملئت مختلف كتب الحديث والسنن باستدراكات السيدة عائشة على الصحابة ولكن وقع اختيار المؤلف على خمسة وعشرون حديثاً منها فقط، ونظراً لعدم مواصلة هذا النوع من الدراسات فقد بقيت استدراكات عائشة محصورة في هذا العدد تقريباً أو يزيد قليلاً.
- ii أنظر في شروط جواز الرواية بالمعنى:
- الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، مصر، مطبعة السعادة، ص300 وما بعدها.
- جلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، شرح وتعليق: صلاح بن عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، ص60.
محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، القاهرة، مكتبة وهبة، 1963م، ص126.
- iii بدر الدين الزركشي، الإجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة: تحقيق: سعيد الأفغاني، بيروت، المكتبة الإسلامي، 1980م، ص103.
- iv لا نعتي أن التقصير بتطوير دراسة وتحليل "الإستدراكات" مقصوراً على السيدة عائشة فحسب، بل في كل ما ورد من مراجعات واستدراكات الصحابة عموماً على بعضهم البعض خاصة ما كان من استدراكات الشيخين أبي بكر وعمر وغيرهما من فقهاء وقراء الصحابة، لما كان له من أهمية في غربلة الكثير من الأحاديث، بل وحتى في مجال تغيير وتطوير بعض مناهج نقد الأسانيد والمتون النظرية والعملية.
- v نود الإشارة إلى التفريق بين الإستدراكات والمستدركات. فالمستدركات: هي الكتب التي يخرج فيها أصحابها أحاديث لم يخرجها كتاب من كتب السنة، وهي على شرط ذلك الكتاب. وقد ألفت عدة كتب استدركت أحاديث على الشيخين البخاري ومسلم كان أشهرها وأكثرها تناولاً بين العلماء "المستدرك على الصحيحين" للحاكم النيسابوري (ت405هـ)
- vi المرجع السابق، ص30-36.
- vii المرجع السابق، ص33،34.
- viii ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي، 1959م، ج1، ص159.
- ix [البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، أبي داود، ابن ماجه، مالك، الدارمي، أحمد]
- x أنظر: الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة، مرجع سابق، ص110.
- xi أورد الأستاذ محمد عجاج الخطيب قولاً لعبد الرحمن بن أبي ليلى يقول فيه: "أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يحدث إلا ودَّ أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتني عن شئني إلا ودَّ أن أخاه كفاه إياه"، ص94.
- xii محمد بن يزيد بن ماجه، سنن ابن ماجه، ج1، ص9.
- وأنظر: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، دمشق، مطبعة الاعتدال، ج1، ص85.
- أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، ج1، ص12.
- xiii "وأنا شريككم" تعني شريككم في تقليل الرواية، أي أنصحكم بذلك وألزم نفسي بالعمل بذلك.
- xiv محمد بن أحمد الذهبي، تذكرة الحفاظ، الهند، 1333هـ، ج1، ص7.
- محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، القاهرة، مكتبة وهبة، 1963م، ص96.
- xv يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ص121.
- محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، مرجع سابق، ص96.
- xvi المرجع السابق، ص97.
- xvii صحيح البخاري، باب تفسير القرآن، رقم الحديث، 4477.
- xviii أنظر: المناقشات التي أوردها الزركشي حول هذا الحديث ص85 وما بعدها.
- xix صحيح البخاري، باب المغازي، رقم الحديث 3681.
- xx سنن الترمذي، باب الجنائز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 925.
- xxi الزركشي، مرجع سابق، ص108.
- xxii المرجع السابق، ص100.
- xxiii المرجع السابق، ص100.
- xxiv المرجع السابق، ص101.
- xxv الغلس: ظلمة آخر الليل بعد طلوع الفجر. أنظر: عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة، الكويت، دار القلم، ج1، ص122.

xxvi وإن مما يدعو إلى النظر والتأمل فيما جاء في كتاب الزركشي في نقله مناقشات بعض المتأخرين من العلماء بين قبول حديث السيدة عائشة وتصويبه خاصة وأنها استدلات بآيات القرآن الكريم ولقد دعم أهل هذا القول حديث "يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب وهم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون". وبين رفضه ومحاولة تبريره لإسباب لا تنطبق على هذه الحالة، وزعم أن أهل العلم لا يرون الإنكار علماً ولا النفي شهادة أو خير".

xxvii رواه مسلم، وقال النووي: ليس معناه أنها اتهمته ولكنها خافت أن يكون اشتبه عليه.
أنظر: عبد الحميد طهماز، السيدة عائشة، دمشق دار القلم، 1979، ص190.

xxviii الزركشي، مرجع سابق، ص111.

xxix الزركشي، مرجع سابق، ص76.

xxx أخرجه الطبراني في المعجم الوسط. أنظر: المرجع السابق، ص142.